مجلة المعارف للبحوث و الدراسات التاريخية
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/111
ISSN: 2437-0584/ EISSN: 2437-0584
المجلد التاسع ،العدد الرابع ،ديسمبر ،2024 ص - ص:50.-66

الحركة الصوفية في مملكة غرناطة ودورها في مواجهة الممالك النصرانية.

El sufismo en el Reino de Granada y su papel en el enfrentamiento a los cristianos

د سليم حاج سعد (*)
جامعة الشهيد حمه لخضر- الوادي،(الجزائر)، salim-hadj.sad@univ-eloued.dz

تاريخ الاستلام: 2024/02/ 19 تاريخ القبول: 2024/04/ 27 تاريخ النشر: 2024/12/ 23

الملخص: يتناول هذا المقال بشيء من التفصيل الصوفية والمتصوفة في مملكة غرناطة في عصر بني الأحمر، ودورهم في مواجهة الممالك النصرانية في شبه الجزيرة الإيبيرية، وهو العصر الذي ازدهرت فيه الصوفية بشكل متزامن مع النكسات التي أصابت الوجود الإسلامي في الأندلس.
ومن خلال هذا المقال يتح لنا الدور الكبير الذي لعبة رجال الصوفي في مملكة غرناطة في مقاومة الغزو النصراني المتوال للأندلس، هذا على الرغم من بعض المآخذ التي سجلها العديد من فقهاء غرناطة حول بعض الممارسات التي كان يقوم بها المتصوفة في الأندلس

الكلمات الدالة: الصوفية؛ المقاومة؛ غرناطة؛ النصارى؛ الأندلس.

Abstrac: This article discusses in some detail Sufism and Sufis in the Kingdom of Granada in the era of the Banu al-Ahmar, and their role in confronting the Christian kingdoms in the Iberian Peninsula, an era in which Sufism flourished simultaneously with the setbacks that befell the Islamic presence in Al-andalus.
Through this article, we will be able to see the major role played by the Sufi men in the Kingdom of Granada in resisting the successive Christian invasion of Al-andalus. This is despite some of the criticisms recorded by many Granada jurists regarding some of the practices that the Sufis were carrying out in Al-andalus .

Keywords: Sufism; Resistance; Granada; Christians; AL-Andalus.

* المؤلف المرسل.

1. مقدمة:

مرت الأندلس الإسلامية عبر تاريخها بصراع طويل ومرير مع الممالك النصرانية الشمالية، فكان لهذا الصراع نتائج وخيمة على الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الايبيرية، فتراجعت رقعة الدولة الإسلامية بمرور الزمن، هذا ناهيك عن التقلبات السياسية والاجتماعية التي أصابت جميع ماحي الحياة، وقد اشتد هذا الصراح في آخر فترة الوجود الإسلامي في المنطقة حيث عصر مملكة غرناطة في عهد بني الأحمر، هذه الدولة التي استطاعت أن تقف في وجه المد النصراني الزاحف لفترة فاقت القرنين من الزمن.

وفي ظل هذه الأوضاع المتأزمة والمتقلبة شهدت المملكة حركة زهد وتصوف كبيرة أخذت أبعادا ومألات عديدة كان لها الأثر الكبير في الجانب الساسي والعسكري والفكري، فما هو واقع الحركة الصوفية في الأندلس في عصر مملكة بني الأحمر في غرناطة؟ وما دور رجال التصوف في مقاومة المد النصراني الذي كان يهدد وجود المسلمين في شبه الجزيرة الايبيرية؟

2. واقع الحركة الصوفية في الأندلس في عصر بني الأحمر:

كان مذهب أهل مملكة غرناطة سنيا يتبع أقوال الإمام مالك بن أنس[1] وهو ما كانت عليه بلاد الأندلس منذ أمد بعيد حيث عصر الدولة الأموية وما تلاها من عصور[2]، وقد كان من طبع العامة من الغرناطيين إجلال العلماء والفقهاء وإعطاؤهم مكانة عالية، فيقول المقري في هذا: " ... والعالم عندهم معظم من الخاصة والعامة يشار إليه ويحال عليه وينْبه قدره وذكره عند الناس ويُكرم في حوار أو ابتياع حاجة ..."[3].

وقد شهد المجتمع الغرناطي حركة زهد وتصوف كبيرة، ويعود ذلك ربما – حسب بعض الدارسين- إلى شيء من انحدار المستوى الحضاري في الغرب الإسلامي، إضافة إلى المضايقات المستمرة للعدو النصراني، مع القلق والحسرة من ضياع أراضي ومدن المسلمين بالأندلس، في مثل هذه الظروف وجد عدد من أهل غرناطة في الزهد والتصوف ملاذا وسلوى للهروب من هذه الحياة القاسية[4]، لذلك يعرفه عدد من الباحثين على: " أن التصوف ظاهرة إنسانية أفرزها مجتمع متأزم خائف، يواجه بها الخوف من الطبيعة"[5]، فتعلق بذلك أهل غرناطة بالزوايا والأربطة

وأقبلوا عليها بكثرة[6]، وفي المقابل كانت الأندلس قي هذه الفترة "دار جهاد وموطن رباط"[7]، وهو ما جعل المناطق الساحلية وضفاف الأنهار تفرز تيارا صوفيا عرف أتباعه بـ "المرابطين"[8] وكان جلهم من عامة الناس، وهذا لمزاوجتهم بين التصوف والجهاد[9] عن طريق المرابطة بالثغور، وهي ظاهرة اختصت بها الحقبة النصرية، حتى سمي الرباط بـ "المحرس"[10] أي لحراسة الثغور، فكان في غرناطة عدد كبير من المراكز الصوفية، عبر عنها ابن الخطيب بقوله : "...والطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق..."[11]. كناية على كثرتها وانتشارها بين أهل غرناطة، وهو ذات الأمر الذي يؤكده ابن بطوطة بوجود عدد كبير من الزوايا مثل زاوية الولي الصالح أبي عبد الله بن المحروق والتي تقع بأعلى ربض نجد من خارج غرناطة المتصل بجبل السبيكة[12]، ومن بين الزوايا والأربطة التي كان يرتادها العامة من أهل مملكة غرناطة نجد: رابطة بياقة[13] ورابطة بلش والتي هي ملاصقة لسور المدينة[14]، ورابطة العقاب والتي تقع على جبل العقاب المطل على العاصمة غرناطة[15]، ورابطة السعداء بمالقة، وكذا زاوية بسطة والتي حبستها امرأة وسافرت[16].

كما اشتملت مملكة غرناطة على عدد هائل من المساجد الصغيرة والكبيرة داخل المدن أو خارجها، ويبدوا أنه يوجد في كل مدينة غرناطية مهما كان صغرها جامع كبير يجمع العامة والخاصة من الناس في كل المناسبات الدينية والسياسية ويجمع فيه الطلبة، بالإضافة إلى مساجد صغيرة يؤمها العامة للصلاة والتعليم، ويقول الحميري في كتابه الروض المعطار عن مدينة شقورة : " ... وبها جامع ومساجد صغيرة ..."[17]، فغرناطة المدينة كان بها مساجد صغيرة يفوق عددها مائتي مسجد[18]، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر مسجد العاصي[19]، ومسجد القيسارية[20]، ومسجد خمرط[21]، ومسجد المرابطين[22]، ومسجد التأبين[23] وغيرها، وقد اشتملت مناطق العبادة في مملكة غرناطة من مساجد وكتاتيب وزوايا على مجالس للذكر، حيث تجمع عددا كبيرا من العامة، وقد اختلفت وتنوعت هذه المجالس على حسب الطريقة التي يتبعها أصحابها، فقد اشتهر عدد كبير جدا من شيوخ الصوفية في عصر دولة بني الأحمر.

وقد كانت علاقة السلطة السياسية بالمتصوفة في تناقض بين مد وجزر، فأحيانا تنفتح عليهم في وقت الأزمات الداخلية أو الخارجية، كما قد يشوب تلك العلاقة التنافر والتباعد

فيكون مصير بعض الصوفية النفي والسجن عند المساس بالسلطة السياسية ومصالحها[24]، وفي بعض الأحيان تقوم سلطة بني الأحمر بحملات ضد أهل الابتداع[25] والهرطقات، وتذهب إلى الحث على "...إخماد البدع وإذهاب الآراء المضلة والاشتداد على أهل الزيغ والزندقة ..."[26]، وهذا حسب وجهة نظر فقهاء غرناطة، وقد أورد المقري لنا نصا واضح الدلالة في محاربة السلطة النصرية لأهل الصوفية الذين يسعون لاستمالة العامة في كثير من الأحيان، مشيرا إلى ما كانوا يعنون بأهل البدع وأماكن تواجدهم قي مملكة غرناطة، والنص عبارة عن ظهير سلطاني كتبه ابن الخطيب إلى بعض فقهاء المدن النصرية يوصي فيه الوزير بالاشتداد على من : "...بتلك الأحواز من أهل البدع والأهواء والسائرين في السبيل على غير السواء ومن ينبز بفساد العقد وتحريف القصد والتلبس بالصوفية وهو في الباطن من أهل الفساد والذاهبين إلى الإباحة وتأويل المعاد والمؤلفين بين النساء والرجال والمتبعين لمذاهب الظلال ..."[27]، وهذه عبارات واضحة من رجل يشغل مناصب كبيرة في السلطة النصرية عن تصرف السلطة السياسة مع المتصوفة، وهنا تجب الإشارة إلى أن ابن الخطيب في هذا الظهير لم يعن كل المتصوفة على حد سواء، وإنما كان يقصد الفرق الضالة من المتصوفة الذي غيروا وحرفوا في كثير من العبادات وغيرها، فأحلوا كثير من المحرمات وحرموا ما أحل الله، فلم يلتزموا بذلك بمذهب من المذاهب الفقهية المعروفة، وخاصة مذهب إمام دار الهجرة الإمام مالك.

3. الممارسات الصوفية وفقهاء غرناطة

تعرضت مملكة غرناطة أواخر القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، إلى تيار عنيف من البدع مس حياة الناس من العامة بشكل مباشر، وقد كان للظروف المضطربة التي يعيشها الناس من أوضاع سياسية واقتصادية واجتماعية مساهمة كبيرة في انتشارها، فخالفوا أهل السنة والجماعة في العبادات، مثل تخليل القراءة في التراويح بما ليس من القرآن، فكثرت المحدثات من الغرناطيين فدخلت حياة المجتمع النصري في أفراحهم وأتراحهم، وهو ما نلاحظه في كتب النوازل ومجاميع الفتاوى الأندلسية، فنهضت طائفة من الفقهاء والدعاة الذين كان يهمهم الحفاظ على الدين الإسلامي وإتباع السنة والجماعة حسب توجههم، ومن بين هؤلاء الفقهاء

نجد الإمام أبي إسحاق الشاطبي، والذي عانى من مواجهته لسلوك مجتمع غرناطة معاناة كبيرة، حيث يقول هو عن نفسه : "... قامت علي القيامة وتواترت علي الملامة وفوق إلي العتاب سهاما ونسبت إلى البدعة والضلالة وأنزلت منزلة أهل الغباوة والجهالة ..."[28]، وهذا الخطاب موجه إليه من عامة غرناطة من أهل البدع الذين كان يواجههم.

ونجد من بين البدع التي توردها لنا كتب النوازل الغرناطية عند العامة هي قراءة الحزب بالجمع[29]، وكذا تصبيح الميت بعد الدفن سبعة أيام[30]، هذا بعد قراءة سورة يسين عند غسله[31]، أما في رمضان فكانوا يعينون ليلة للختم من العشر الأواخر، والتي يتم فيها الدعاء الأخير[32]، كما تتم قراءة القرآن كله في هذه الليلة بالإضافة إلى القيام بزيادة الوقد (الإضاءة) في تلك الليلة مقارنة بسائر أيام الشهر[33]، ناهيك عن الزيادة في الأذان وذلك بعد الفراغ منه حيث يقول : "أصبح ولله الحمد"[34]، هذا على الرغم من نهي العلماء المشهورين عن كل هذه الأعمال واعتبارها من البدع، ومن الأشياء التي أثارت خلافات كبيرة بين الممارسة من جهة وقبول الفقهاء لها أو رفضها من جهة أخرى، نجد الذكر الجماعي، والذي يتمسك به الصوفية بشكل كبير خاصة منهم الفقراء، ومن بين الفقهاء الذي أجازوا هذا النوع من العبادة الإمام ابن لب، ورغم ذلك فإنه ذكر أن "... فقراء الوقت – يقصد عصره – قد تحيزوا بسمات وتميزوا بأصوات هي إلى الاعتداء منها إلى الاقتداء وطريقتهم إلى اتخاذها مأكلة وصناعة أقرب منها إلى اعتدادها قربة وطاعة..."[35]، وما نلاحظه ان ابن لب لم يجزه بالطريقة التي كانت تمارسها طائفة الفقراء، حيث كانت تصاحب المجلس أشياء أخرى لم يوافق عليها أغلب الفقهاء، وفي هذا سئل ابن لب أيضا عن إنشاد الشعر في الصوامع عقب التهليل وكذا إنشاد الشعر الغزلي فأفتى ببدعيته ونهى عنه[36] وعدم جواز هذا الفعل، ومن البدع التي نهى عنها الفقهاء في أخر عصر بني نصر في غرناطة ما يسمى بخطيب السارية ، فقد سئل الامام السرقسطي عما يفعله أهل بلش بجامع الخطبة، حيث أنهم إذا طلع الإمام للمنبر من يوم الجمعة، وبدأ المؤذن في الأذان، يقوم المكلف بتوزيع الأجزاء القرآنية فيقف بجانب المنبر خطيبا حيث يقول : عباد الله، ثم يذكرهم بفضل ذلك اليوم ويحضهم على الدعاء فيه، فأفتى إمامنا

ببدعية هذا الفعل، ولم يبق الأمر عند هذا، وإنما صدر الأمر السلطاني بتاريخ 22 محرم 858هـ بمنع هذه "البدعة" ومحاربتها[37]، وهذا طبعا حسب رأي المخالفين.

وفي نفس السياق كانت في مملكة غرناطة طريقة صوفية تسمى بطريقة الفقراء[38]، وهي تضم طائفة تنتمي إلى التصوف والفقر[39]، حيث يجتمعون في الليل عند أحد أفرادها، فيفتتحون المجلس بشيء من الذكر على صوت واحد، ثم ينتقلون بعد ذلك إلى "...الغناء والضرب بالأكف والشطح إلى آخر الليل ..."[40]، ويأكلون في أثناء هذا المجلس طعاما يعده لهم صاحب المنزل، وفي العادة يحضرون معهم بعض الفقهاء الذين يستشهدون بهم على أن هذه الأفعال ليست مخالفة للسنة والشرع[41]، كما تذهب هذه الطائفة إلى تحليل كثير مما حرم الله في شرعه، من اختلاط بين النساء والرجال والزيادة في الكثير من العبادات، وعندما يطرح عليهم السؤال عن مصدر أفكارهم يقولون : "...أنهم لا ينظرون إلى كتاب ولا أسطار إنما ما حصل في صدورهم..."[42]، وقد انساق العديد من أهل غرناطة وراء مثل هذه الأفكار حتى جرى التقليد عند عدد منهم باستدعاء الفقراء إلى بيوتهم وأرباضهم[43]، وذلك التماسا للبركة بالصلاة وتلاوة القرآن والذكر والسماع لهم، والقيام معهم بالكثير من طقوسهم[44]، ويتبعهم الكثير من العامة في هذا، ويشير ابن بطوطة في رحلته إلى مملكة غرناطة إلى هذه المظاهر بل ويضيف إليها أنه شاهد طائفة من فقراء العجم قال أنهم استوطنوها لشبهها ببلادهم وذكر لنا عددا من شيوخها، حيث كان لهم رباط يزوره عدد من عامة مملكة غرناطة قصد التبرك بهم[45].

وقد كان لابن الخطيب موقفا منتقدا لعدد من الطرق الصوفية التي ذهبت إلى المغالاة والانعزال التام عن الحياة العادية مثل طريقة الشيخ عبد الجليل(عاش أواخر القرن الثامن الهجري)[46]، حيث أن أتباع هذا الشيخ من العامة اعتزلوا الناس وأعرضوا عن العمل والجهاد، وطلقوا أزواجهم وتطارحوا في مصلى الجنائز، وفي هذا يقول منتقدا لهم : "...وأحجكم بالشيخ عبد الجليل الذي ظلمتموه، وبكشف الغيوب اتهمتموه، وبالولاية حددتموه ووسمتموه، وهو بقوم السبب بيعا وشراء، واعمارا وكراء، ويصلح من كرمه الذي يبلغه ولم يرمه..."[47]، وهذا موقف

ابن الخطيب وتوصيفه لحال أهل غرناطة ممن اتبعوا هذه الطريقة التي اعتبرها مخالفة لما جاء به الشرع.

ويبدوا أن العامة من سكان مملكة غرناطة قد تضرروا من مثل هذه الطرق الصوفية وأتباعها الذين كانوا يستغلون المستوى البسيط من ثقافة العامة لاستمالتهم واستغلال أموالهم، وهو الأمر الذي عابه الفقهاء في المملكة، فقد ذكر الإمام الحفار أن طائفة الفقراء المنتمية للتصوف في زمانه قد عظم ضررها في الدين وفشا فسادها خاصة في القرى والحصون البعيدة عن الحضرة، وأنهم قوم لا هم لهم ولا حرفة ولا صناعة، ليس لهم من الدين إلا الأكل والشطح وأكل أموال الناس بالباطل، همهم النصب والاحتيال على الجهال من العوام والنساء، وأنهم أفسدوا التصوف بما أضافوا إليه من البدع والضلالات[48]، التي لا تحث المجتمع على العمل وإنما تشجع التكاسل والتوكل في غير محله.

كما انتشر في بعض أربطة الفقراء والمتصوفة الكثير من مظاهر الانحراف الأخلاقي والابتعاد عن الدين مستغلين بعد هذه الأربطة عن المدن وسلطة القضاء والشرطة، ففي نازلة سئل فيها أبو البركات البلفيقي عن زاوية للفقراء يجتمعون فيها للذكر والأكل وإنشاد الشعر ويشطحون ويبكون فأجاب بأنه جرى المسامحة في ذلك لما في ذلك من الصدقات وإرفاد ابن السبيل، كما وافقه ابن لب ، لكن أهل قنالش أنكروا على المفتين هذه الفتوى وذكروا أن أقواما يجمعون النسوان ويدخلون في المنهيات ويتلبسون بصبيان من أهل الفساد، فأجاب ابن لب بأن السائل لم يذكر في سؤاله ما ذكروا من الفساد ولا كان المجيب يعلم الغيب[49]، وهي صورة واضحة عما كانت تحتويه بعض أربطة الصوفية الفقراء من انحراف عن الشرع واستغلالها للانحرافات الأخلاقية، ورغم من انخراط العديد من أفراد العامة من أهل المنطقة في مثل هذه الأفعال ومساهمتهم فيها، إلا أننا نلاحظ أن العامة من أهل قنالش أنكروا على الفقهاء المفتين إجازة أعمال الفقراء المتصوفة في رباطهم، هذا على الرغم من عدم وصول الصورة الكاملة لهم، إلا أن هذا الموقف يبين لنا حرص أهل قنالش على تصحيح هذه الصورة ورفضهم لتلك الأعمال.

كما تجدر الإشارة إلى أن العامة من أهل غرناطة كانوا يتدخلون في كثير من الشؤون الدينية، مثل تقديم وتأخير أئمة المساجد في كثير من مناطق العاصمة وضواحيها[50]، هذا بالإضافة إلى تحكمهم في الكثير من شؤون تلك المساجد، بل ويذهبون في كثير من الأحيان إلى "تحريف" الأحباس عن مواضعها التي أوصى بها محبسوها، وخاصة التي هي موقوفة على إمام المسجد، فيغيرونها إلى مواطن أخرى تخص المسجد[51]، في شكل من التدخل، وفي المقابل يقدم لنا ابن الخطيب بعض الصور الحسنة عن إجلال العامة في غرناطة لبعض العلماء والتبرك بهم، ومن أمثلة ذلك أحمد بن الحسن بن علي بن الزيات الكلاعي(ت723هـ/1323م) الذي قال عنه : "...فكانوا يوجبون حقه ويلتمسون بركته ويلتمسون دعاءه ..."[52]، بل ويذهب العامة من أهل غرناطة إلى التعصب إلى عالم على حساب آخر، وهذا خاصة في الأمور الخلافية التي يتم تداولها بينهم[53]، وما يصاحبها من اختلاف بين العلماء.

ومع العامة من الناس، كان بعض الفقهاء يشتكي عدم الاحترام والمكانة اللازمة بهم، فكانوا يتعرضون للازدراء والاستخفاف وكثير من الممارسات السيئة، وهو الأمر الذي عبر عنه الفقيه والشاعر عبد الكريم القيسي(896هـ/1491م) إلى درجة أنه قام بمقارنة بينه وبين الكلب في المكانة فقال:

الكَلْبُ صَارَ بِبَسْطَةَ أَعْلَى وَأَشْرَفُ مِنْ فَقِيه
أَنَّى فَقِيـــهٍ يَعْتَلِـي لِمَحَلِـــهْ أَوْ يَرْتَقِـــيهْ
الكَلْبُ مَالِكُهُ بِهَـــا مِنْ كُلِّ مَا يَخْشَى يَقِيهْ
وَفَقِيهُهَا مِنْ أَهْلِـــهَا مَا سَاءَ مِنْهُمْ يَتَّقِـــيهْ
فَتَرَاهُ عِنْـدَ خُرُوجِـــهِ يَرْتَابَ مِمَـــنْ بَلْتَقِـيهْ[54]

(الكامل)

4. دور المتصوفة في مواجهة الممالك النصرانية

عاش في دولة بني الأحمر–غرناطة–الكثير من الزهاد والصلحاء والصوفية، ولكنهم لم يشتهروا ويذيع صيتهم في الآفاق، كما ذاع وشاع صيت المتصوفة في زمن المرابطين والموحدين كابن العريف ومحي الدين ابن عربي وابن سبعين.

وقد حصل المتصوفة في كثير من فترات عهد مملكة غرناطة على تشجيع سلاطين بني الأحمر وتقديرهم واحترامهم، ودليل اهتمام دولة بني نصر بالمتصوفة هو محاولة التقرب منهم في بداية نشأتها، ومثال ذلك ما قام به السلطان مُحَمَّد بن يوسف بن الأحمر 635-1272 م لما تعرض لضغط ملك قشتالة النصراني، والذي كان ملتزما معه بمعاهدة تلزمه بالاستعداد لنصرته لمحاربة خصمه القشتالي، غير أن السلطان النصري توجه إلى وادي آش حيث يقيم الشيخ أبو مروان عبد الملك بن إبراهيم بن بشر القيسي الصوفي ت 667 هـ/ 1268م، وهو مستغيثا به لنجدته من الأزمة التي حلت به، وقد ألتزم السلطان برأي الشيخ الذي وجد بدعائه ودعاء أمثاله الخلاص من هذا الارتباط السياسي.

وشهد المجتمع النصري حركة زهدية قوية في أوساط العامة والخاصة، فكثر الزهاد والمتصوفون كما ذكرنا سابقا، فبالإضافة إلى أوضاع هذه الدولة الخاصة، ساعد على ازدهار حركة الزهد قدوم مهاجرين من الهند وسمرقند وتبريز وخراسان واستقروا في الأندلس وساهموا في إبراز الزهد، وقد زار ابن بطوطة في رحلته الأندلسية مملكة غرناطة، وهنالك شاهد عددا من المتصوفة والذين أطلق عليهم اسم فقراء العجم، وعليه اشتدت الحركة الصوفية في مملكة غرناطة وازدادت نفوذا و رسوخا خاصة مع مساهمتهم في الجهاد ومقاومة الزحف النصراني فكانوا من بين حماة الثغور والواقفين في وجه اغلب الهجمات النصرانية.

وقد كان عدد كبير من رواد الحركة الصوفية في مملكة غرناطة يسكنون الأربطة والحصون لحراسه الثغور والدفاع عن المملكة ضد غارات الممالك النصرانية الشمالية، وهو دور وعمل اضافي يقومون به اضافة الى مكوثهم في العزلة والزهد والتصوف والعبادة، وهو الأمر الذي انعكس بالإيجاب عليهم وذلك من خلال صورتهم في نفوس الناس وحسن تصرفهم في

التصوف، وهو ما أدى في النهاية إلى ميل الكثير من سكان مملكة غرناطة لهذا النموذج من التصوف واقبالهم عليه، فكانت بذلك مملكة غرناطة مركزا من أهم مراكز التصوف في عصرها.

تعتبر الأربطة من المؤسسات الأكثر ارتيادا والأشد ارتباطا بطبيعة الممارسة الصوفية كما هو معلوم، غير أن وظيفتها التعبدية اقترنت في الكثير من الأحيان في مملكة غرناطة بالوظيفة العسكرية الدفاعية، حيث كانت مقرا وأداة للجهاد ضد هجمات الممالك النصرانية، وهو الامر الذي يفسر لنا المواقع الجغرافية لمعظم هذه الأربطة، حيث تكون خارج أسوار المدن في مواجهة الهجمات الخارجية بالإضافة إلى الثغور البحرية، وهذه الظاهرة نجدها حاضرة منذ بداية التصوف الاسلامي في الاندلس بشكل خاص[55]، وبهذا نجد أن الرباط ارتبط من الناحية الدلالية بالوظيفة الجهادية أكثر من الدلالة على الوظيفة التعبدية، فكان بهذا مقرا ومركزا لوظيفتين في آن واحد.

وفي الغالب كانت عملية التصوف التي تكون بالاعتزال عن الحياة العامة والعمل والجهاد، مستهجنة بشكل كبير في مملكة غرناطة في عصر بني الأحمر، وهو ما نلاحظه عند عدد من المؤرخين أهمهم لسان الدين ابن الخطيب، حيث نجده يثني في كتاب الاحاطة في اخبار غرناطة بحماس على شيخين صوفيين لاجتهادهما في الجهاد والرباط ومثابرتهم لتحريض المتصوفة على مواجهة النصارى، وهذين الشيخين هما غالب بن حسن الخزاعي وعلي بن جعفر بن أحمد الخزاعي، وفي المقابل نجد أن ابن الخطيب ينتقد وبشكل لاذع أحد مريدي الشيخ عبد الجليل لاعتزاله في الزاوية عن الجهاد والعمل، فيقول في هذا: "... اين الصدقات، إذا حدقت الى الأكف الحدقات، أين زلف الليل، أين الزكاة المتوعد ممسكها بالويل، أين الجهاد وارتباط الخيل ... ما الذي رابكم آنس الله اغترابهم من سيرة السلف الذين تجرروا وكسبوا، وانتموا لغنى الأكف وانتسبوا، وتصدقوا ووهبوا، وجاهدوا وحجوا، وما انحرفوا ولا لجوا...."[56].

فكانت مملكة غرناطة محاطة بعدد كبير من الأربطة والحصون التي تكون دائمة الإقامة، فهي بمثابة المركز الاجتماعي المستقل، فيكون في الغالب محصنة ضد الهجمات المباغتة، فهي

بذلك أشبه بالثكنات العسكرية الدفاعية وهو ما كان يجلب الكثير من المتصوفة، ومن بين الأربطة التي كانت تحيط بأراضي مملكة غرناطة في عصر بني الأحمر:

أ. رباط اللحام: وهذا الرباط جاء ذكره عند ابن الخطيب في كتاب الإحاطة حيث ذكر أن شيخه هو يحي بن إبراهيم بن يحي البرغواطي[57].

ب. رباط العقاب: وهو الرباط الذي زاره ابن بطوطة رفقة الشيخ أبي الحسن علي بن عمر بن المحروق، وذكر أن شيخه يدعى عبد الحق بن سبعين العكي[58]، وهو الذي يقع على سفح جبل مشرف على مدينة غرناطة، ومما تذكره المصادر التاريخية عن هذا الرباط أن الزاهدين ابن سبعين والششتري أقاما في هذا الرباط جزءا كبيرا من حياتهما[59].

ت. زاوية ابن المحروق: وهو الرباط الذي ذكره ابن بطوطة، حيث يقع خارج مدينة غرناطة، وشيخه أبو علي عمر بن عبد الله، وهو الذي نزل عليه ابن بطوطة ضيفا فقام بإكرامه[60].

ث. رابطة ابن عبد البر: وهي التي تقع في ربض البيازين بمدينة غرناطة، والذي يقع مقابلا لمدينة الحمراء، وقد أشرف عليها أبو أحمد جعفر الخزاعي، فكان من نشاطاته في هذا الرباط أن يقوم بجمع المصلين كل ليله لقراءة القرآن وللاجتماع حول حلقات الذكر والاستماع إلى الأشعار والمدائح الصوفية.

ج. رابطة ابن الخطيب السلماني: وهو من أهم الأربطة أيضا في مملكة غرناطة، والتي تقع في حي "أخشارش" قرب مسجد البكري داخل مدينة غرناطة[61]، وهذه الزاوية هي التي أوقف عليها وعلى مدرستها الشيخ يحي بن عبد الله بن زكريا الانصاري كتبا مهمة وذات قيمة، تدور موضوعاتها خاصة في الفرائض والحساب[62].

ح. رباط السودان: وهو الذي يقع خارج مدينة مالقة، في منطقة استراتيجية ومهمة في الدفاع عن المدينة ضد هجمات الممالك النصرانية، وتذكر المصادر التاريخية أن الشيخ يحي بن إبراهيم بن يحي البرغواطي نزل به أول الأمر عند قدومه من العدوة المغربية، وبعده انتقل إلى رباط اللحام[63].

خ. رباط أبي القاسم المريد: وهو يقع خارج مدينة مالقة وخارج باب فنتالة، وكان الشيخ الساحلي يؤم بهذا الرباط الناس، وفيه التقى بشيخه أبي علي الحرار[64].

د. رباط اللحام: هو من أربطة مملكة غرناطة، هذا على الرغم من أننا لا نعلم بدقة موقعه، حيث لم تجد علينا المصادر التاريخية إلا بما ذكره ابن الخطيب في كتابه الإحاطة، حيث أخبرنا بأن يحي بن إبراهيم بن يحي البرغواطي كان شيخا لهذا الرباط[65].

ذ. رباط ابن أخيه الفقيه أبي الحسن علي بن أحمد المحروق، وهو رباط أيضا يعرف برباط اللحام، ويقع بأعلى ربض نجد خارج مدينة غرناطة، وكان الفقيه ابن أخيه شيخا على هذا الرباط وقائما على " المتسببين من الفقراء" فيه، وهو الرباط الذي ذكره ابن بطوطة في رحلته، حيث أشار إلى أنه التقى الشيخ ابن أخيه في هذا الرباط[66].

ر. رباط أبي جعفر بن عبد الله بن مُحَمَّد بن سيد بونة الخزاعي، وهو الرباط الذي حمل اسم هذا الشيخ المتصوف، وهذا لأنه نزل به أول دخوله الى مملكة غرناطة حيث أقام به مدة، وحمل اسمه لأن الأتباع المقيمين بهذا الرباط سموه باسمه تعظيما له[67].

ز. رباط الأشعري: وهو نسبة إلى علي بن أحمد بن مُحَمَّد بن عثمان الأشعري، وهذه الكنية الأخيرة " الاشعري" كني بها نسبة إلى جده، وأخذ هذا الاسم لأن علي بن أحمد هذا كان يقوم شيخا في هذا الرباط على الفقراء "السفارة"[68].

س. رباط جعفر من أحمد بن علي الخزاعي: وهو الرباط الذي يقع بربض البيازين بداخل مدينة غرناطة، حيث بناه الشيخ الصوفي جعفر بن أحمد بعد أن هاجر مع أتباعه من شرق الأندلس إلى مدينة غرناطة، فشيدوا فيه مسجدا ودار إقامة، فأقاموا فيه "رسم الإرادة" فالتف حولهم المريدون وانتشرت طريقتهم انتشارا كبيرا في المدينة غرناطة وخارجها[69].

وأدت هذه الأربطة أدوار دفاعية عن مملكة غرناطة من البر والبحر غايه في الأهمية، فلعب بذلك المتصوفة دورا بارزا كخط دفاعي أول متطوع قبل الجيش النظامي، ومن أشهر المعارك التي خاضها المتصوفة ضد النصارى معركة طريف سنة 741هـ / 1341م، وهي

المعركة التي استشهد فيها الشيخ الصوفي القاضي أبي عبد الله مُحَمَّد بن يحي بن مُحَمَّد الأشعري المالقي، وهو الذي تذكر المصادر التاريخية بأنه كان عالما خلوقا مقربا لأهل العلم والأدب، شجاعا مقداما في المعارك التي يخوضها ضد الأعداء النصارى، يرغب الجنود والمريدين في الجهاد ويذكرهم بفضل الشهادة و أولوية الجهاد على المتصوفة[70].

كما لعب شيوخ الصوفية في مملكة غرناطة أدوارا سياسية عديدة، وذلك كأن يكونوا سفراء للمملكة لدى الدول المجاورة، كسفارة الشيخ أبي مروان عبد الملك بن ابراهيم اليحانسي إلى السلطان المريني أبو يعقوب يوسف بن عبد الحق المنصور 685هـ / 1287م، حيث كانت هذه الرسالة بغية طلب النجدة والمساعدة من دولة بني مرين للتصدي لهجمات الممالك النصرانية وخطرها المحدق على مملكة غرناطة[71].

5. خاتمة :

من خلال ما سبق يتضح لنا أن الحركة الصوفية في مملكة غرناطة في عصر بني الأحمر شهدت حركية وازدهارا وتنوعا كبيرا، على الرغم من معارضة عدد من الفقهاء الكبار لبعض ما يعتبرونه انزلاقا وانحرافا كبيرين لبعض هذه الطرق الصوفية مثل طريقة الفقراء، والتي ذهب أتباعها إلى التغيير في الكثير مما هو معلوم من الدين بالضرورة وثابت عند كل المذاهب الإسلامية السنية، كما كان التصوف الملاذ والمهرب للكثير من أهل غرناطة في هذا العصر المتقلب الأحداث، نتيجة لتكالب الممالك النصرانية على المسلمين في شبه الجزيرة الايبيرية، فكان مجتمع غرناطة مجتمعا متأزما وجد في التصوف سلوى ومواساة من هذا الواقع المرير.

كما تميزت الحركة الصوفية في مملكة غرناطة في عصر بني الأحمر بظاهرة جديرة بالاهتمام ألا وهي انخراط المتصوفة بأربطتهم ومواقعهم في حركة الجهاد والمقاومة الدائمة ضد هجمات النصارى على المملكة، فكانت وظيفتهم إضافة إلى الوظيفة التعبدية : الجهاد والرباط في سبيل الله، فتحولت الأربطة الصوفية إلى ثكنات عسكرية تحتل موقع الصدارة من الناحية الجغرافية للدفاع عن الإسلام والمسلمين في الأندلس.

الهوامش :

[1] ابن الخطيب لسان الدين مُحَمَّد بن عبد الله : **اللمحة البدرية في الدولة النصرية**، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2، 1978، ص 26.

[2] المقري أحمد بن مُحَمَّد التلمساني : **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** ، تحقيق إحسان عباس، دار صادر ، بيروت ، 1988، ج 3 ، ص 230.

[3] المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 220.

[4] أحمد ثاني الدوسري : **الحياة الاجتماعية في غرناطة في عصر دولة بني الأحمر** – دكتوراه دولة، إشراف الدكتور إبراهيم حركات، جامعة مُحَمَّد الخامس ، الرباط، 2002 / 2003، ص 105.

[5] عبد اللطيف الشادلي : **التصوف والمجتمع** ، منشورات جامعة الحسن الثاني، مطابع سلا، 1989، ص 316.

[6] أحمد مُحَمَّد الطوخي : **مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1997 ، ص 344.

[7] الحميري مُحَمَّد بن عبد المنعم : **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، 1975. 1984، ص 179 – 183.

[8] سعيد بنحمادة : **الماء والإنسان في الأندلس خلال القرنين 7و8هـ/13و14م**، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت،2007، ص 265.

[9] عبد الرحيم العلمي : **الحركة الصوفية بالأندلس خلال القرن 8هـ**، دار الأمان ، الرباط، 2010، ص 66.

[10] الحميري : المصدر السابق، ص 183.

[11] ابن الخطيب : **الإحاطة في أخبار غرناطة** ، تحقيق يوسف علي طويل ، ج 1 ، ص 459.

[12] ابن بطوطة اللواتي: **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الاسفار** ، تحقيق عبد الهادي التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1997، ج2، ص685.

[13] ابن لب أبو سعد فرج بن قاسم (ت782هـ/1380م): **تقريب الأمل البعيد في نوازل الأستاذ أبي سعيد**، تحقيق حسين مختاري وهشام الرامي، دار الكتب العلمية ، بيروت، 2004، ج 1 ، ص 74.

[14] الونشريسي : **المعيار** ، ج 7، ص 146.

[15] ابن بطوطة : المصدر السابق، ج2، ص 68

[16] الونشريسي : **المعيار** ، ج 7، ص 115.

[17] الحميري مُحَمَّد بن عبد المنعم : **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، 1975. 1984، ص 349.

[18] أحمد ثاني الدوسري : المرجع السابق ، ص 325.

[19] ابن الخطيب : **الإحاطة في أخبار غرناطة** ، ج 1 ، ص 491.

[20] المقري : **نفح الطيب** ، ج 3 ، ص 450.

[21] ابن الأبار أبو عبيد الله مُحَمَّد : **التكملة لكتاب الصلة** ،تحقيق عبد السلام الهراس، دار الفكر، بيروت، 1995، ج1 ، ص 317.

[22] ابن عبد الملك المراكشي (ت 703هـ / 1303م): **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة** ،تحقيق إحسان عباس، ج 2 ، السفر الخامس ،دار الثقافة، بيروت، 1965، السفر السادس ، ص 429.

[23] لويس سيكو ذي لوثينا (حررت الوثائق أواخر القرن9هـ/15م): **وثائق عربية غرناطية من القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي**، مدريد، 1961، ص 108.

[24] الدهماني سالم الدهماني : **التاريخ السياسي والاجتماعي لمملكة غرناطة في ظل بني الأحمر** – دكتوراه دولة، إشراف الدكتور مُحَمَّد رزوق ، جامعة الحسن الثاني ، الدار البيضاء، 2002/2001، ص 352.

[25] أحمد عزاوي : **الغرب الإسلامي في أواسط القرن الثامن الهجري** – دراسة تاريخية لديوانيات ريحانة الكتاب لابن الخطيب ، جمعية الحسن الوزان للمعرفة التاريخية، القنيطرة، 2008، ص 56.

[26] ابن الخطيب : **الإحاطة في أخبار غرناطة** ، ج 2 ، ص 65.

[27] المقري : **نفح الطيب** ، ج 6 ، ص 407.

[28] أبي إسحاق الشاطبي : **الاعتصام** ، المطبعة التجارية، مصر، (د ت)، ص 127، 128.

[29] أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي : **فتاوى الإمام الشاطبي** ، تحقيق مُحَمَّد بن الأجفان، مطبعة الكواكب ، ط2 ، تونس ، 1985، ص 206. ابن لب الغرناطي : المصدر السابق ، دج1 ، ص200.

[30] المصدر نفسه ، ص 209.

[31] المصدر نفسه ، ص 209.

[32] الونشريسي : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 438.

[33] الشاطبي : **فتاوى الإمام الشاطبي**، ص 207.

[34] المصدر نفسه ، ص 207.

[35] ابن لب : المصدر السابق، ج 1، ص 191.

[36] المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 191.

[37] الونشريسي : **المعيار** ، ج 1، ص 277.

[38] عرفهم ابن ليون التجيبي فقال : الفقر بأنه مشتق من فقار الظهر فالفقر شكر المنعم على كل حال أو هو فقد ما يحتاج إليه، ويذهب لى أن الفقراء والصوفية شيء واحد في المعارف والأذواق مختلفون في اللباس فالصوفية يلبسون ما يجدون، وقد يلبسون فاخر الثياب ويتسببون في المعاش أما الفقراء فيلبسون المرقعة وهم متجردون ، أنظر : الششتري أبي الحسن : **الرسالة الششترية**، تلخيص أبي عثمان ابن ليون التجيبي ، تحقيق مُحَمَّد العدلوني، دار الثقافة، الدار البيضاء، 2004، ص 136.

[39] ابن لب الغرناطي : المصدر السابق ، دج1 ، ص 191 ، 194، 206.

[40] المصدر نفسه ، ص 193.

[41] المصدر نفسه ، ص 193.

[42] المصدر نفسه ، ص 189 ، 190.

[43] عبد الرحيم العلمي : **الحركة الصوفية بالأندلس خلال القرن 8هـ**، دار الأمان ، الرباط، 2010، ص 69.

[44] المرجع نفسه، ص 69.

[45] ابن بطوطة : المصدر السابق ، ص 245.

[46] لم تذكر المصادر التاريخية سوى أنه عاش أواخر القرن الثامن الهجري وأن أتباعه اعتزلوا النساء وما تغلق بالحياة العادية للإنسان. ابن الخطيب : **الزواجر والعضات**، تحقيق مُحَمَّد كمال شباتة، صندوق إحياء التراث الإسلامي، الرباط، 1977، ص 180.

[47] المصدر نفسه ، ص 179، 180.

[48] الونشريسي : **المعيار**، ج 11، ص 42 -43.

[49] المصدر نفسه، ج 11، ص 39.

[50] ابن سراج الأندلسي أبو القاسم مُحَمَّد (ت848هـ/ 1444م): **فتاوى قاضي الجماعة أبي القاسم بن سراج الأندلسي** ، تحقيق مُحَمَّد أبو الأجفان ، المجمع الثقافي ، الإمارات العربية المتحدة ، 2000، ص 162.

[51] المصدر نفسه ، ص 161.

[52] ابن الخطيب : **الإحاطة في أخبار غرناطة** ، تحقيق يوسف علي طويل ، ج 1 ، ص 145.

[53] الشاطبي : **فتاوى الإمام الشاطبي**، ص 62.

[54] عبد الكريم بن مُحَّد البسطي القيسي : **ديوان عبد الكريم القيسي**، تحقيق جمعة شيخة ومُحَّد الهادي الطرابلسي، بيت الحكمة، تونس، 1988، ص468.

[55] عبد الرحمن بدوي: **تاريخ التصوف الإسلامي حتى نهاية القرن الثاني**، وكالة المطبوعات، الكويت، 1978، ص26

[56] ابن الخطيب لسان الدين: **الزواجر والعظات**، تحقيق مُحَّد كمال شبانة، صندوق إحياء التراث الإسلامي، الرباط، 1977، ص177

[57] ابن الخطيب: **الإحاطة** ، ج4، ص427

[58] المصدر نفسه، ج4، ص37

[59] السامرائي، خليل إبراهيم وآخرون : **تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس**، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، 2000، ص 356

[60] ابن بطوطة اللواتي: **المصدر السابق**، ج2، ص 226

[61] ابن الخطيب: **الإحاطة**، ج3، ص40

[62] المصدر نفسه، ج4، ص 375

[63] المصدر نفسه، ج4، ص427

[64] أبو عبد الله المعمم: **بغيه السالك في أشرف المسالك**، تحقيق عبد الرحيم العلمي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 2003، صج2، ص524

[65] ابن الخطيب: **الإحاطة**، ج4، ص427

[66] ابن بطوطة: المصدر السابق، ج2، ص 226

[67] ابن الخطيب: **الإحاطة**، ج 1، ص 463

[68] المصدر نفسه، ج 4، ص 201

[69] المصدر نفسه، ج 1، 459

[70] المصدر نفسه، ج 2، ص107

[71] مُحَّد الشريف: **من مظاهر التواصل الحضاري بين المغرب المريني وغرناطة النصرية**، وزارة الثقافة، 2004، ص 102